رد على نقد

القديم والجـــديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

إذا كانت الأشياء تتبين بأضدادها فقد تبين معنى القديم الذى أردناه لما بينا فى المقال الماضى مرادنا بالجديد

إن قديم الإسلام الذى ذكرناه فى أولى الكلمتين اللتين نقدها الأستاذ قارئ هو القديم الذى نحفل ونفخر به والذى لا نرى سواه جديراً بالاستمساك به والذود عنه . لكن قديم الإسلام ليس مرادفاً من كل الوجوه لقديم المسلمين . فقديم المسلمين هو كل ما شمله تاريخهم مما يسر ويسوء ، ومما يطابق أو يخالف الإسلام . لو كان المسلمون معصومين من الخطأ ومتابعة الهوى ، أولو كانوا مع عدم عصمتهم لم يخطئوا إلا خطأ المجتهد ، لكان قديم المسلمين هو وقديم الإسلام سواء ، ولكان حال المسلمين اليوم شيئاً آخر غير ما هم فيه . لكن المسلمين بعد أن فتح الله البلاد على سلفهم الصالح وخلفوه فيها فتنتهم الدنيا كما فتنت من قبلهم ، وحاولوا أن يتحللوا من قيود دينهم ، وتهاون أولو الأمر فى إقامة حدوده فزلت الأقدام بعد ثبوتها ، وتداولتهم الأيام حتى صاروا إلى ما هم عليه

ومن الإفك العظيم الذى يأفكه الغرب أن ينسب ما هم فيه إلى دينهم الذى إليه ينتسبون . لو كان ما هم فيه نتيجة العمل بالإسلام ما كان هناك مفر من اتخاذهم حجة عليه . لكنهم صاروا إلى حاضرهم المخزى بتركهم العمل بالإسلام ، فهم حجة له سلبية كما أن سلفهم الصالح حجة له إيجابية ، وتمت بذلك حجة الله على الناس . سلفهم الذى نزل فيه الدين استمسك بالدين فدانت له الأرض فلم تطغه ولم تبطره ، وضرب للتاريخ المثل العملى الفرد لحكومة الله فى الأرض كيف تكون . فكانت تجربة أجراها الله فى الأرض لا يقدر على إجرائها غيره ، تحققت بها دعوى الاسلام أنه دين الفطرة التى فطر الله عليها الناس ، لا يتحقق لهم كمال ولا سعادة إلا به ، أفراداً كانوا أو جماعات . وحسبك من كمال الفرد به . تطور النفس الجاهلية إلى مثل نفس عمر وأبى بكر وعلى وعثمان ، ومن إليهم من السابقين الأولين ، وحسبك من كمال البيئة الإنسانية وسعادتها تطور البيئة الجاهلية به إلى البيئة الإسلامية أيام الرسول الكريم صلوات الله عليه وفترة مذكورة بعد أيام الرسول

ثم أجرى المسلمون أنفسهم لسوء حظهم التجربة الأخرى التى يتم بها إثبات أن ذلك التطور المعجز الذى تطورته النفس البشرية لما خالطها الإسلام ، كان حقا نتيجة للاسلام لا لغيره . وآية ذلك أن يزول الأثر إذا زال المؤثر ، كما يجرى فى أى تجربة علمية . وقد كان ، فزال عن النفس كمالها ومن البيئة عزها لما انخدعت عن دينها ، وتعطل أثر الإسلام فيها

فتاريخ المسلمين إذن فيه الخير وفيه الشر ، فيه تحقيق الاسلام عمليا وفيه تعطيله . وإذا كان قديم المسلمين يشمل الاثنين بالطبع لأنه عين تاريخهم فإن قديم الدين لا يمكن أن يشترك مع قديم أهله إلا فى ذلك الجزء الذى حققوا الإسلام فيه . فقديم الإسلام الذى نقصده والذى قصدناه بما كتبنا من قبل هو أولا كتاب الله وسنة رسوله ، وهو ثانيا ما طابق الكتاب والسنة من تاريخ المسلمين

وإذا فهمنا قديم الإسلام هذا الفهم وتم لنا تحديده هذا التحديد وجدنا أنفسنا أمام شىء يزول معه كل معنى للتفرقة الزمنية بين الأمور ، فلا يكون هناك محل فى الإسلام لفكرة القديم والجديد كما تفهم الآن . إن الإسلام دين الفطرة ، والفطرة عند التحقيق لا يتفاوت فيها فى دائرة الحق قديم ولا جديد . إنما يكون التفاوت والتناقض بين الحق والباطل . فكل جديد يخالف قديم الإسلام بالمعنى الذى حددناه هو جديد باطل ، نصيبه من البطلان بقدر ما بينه وبين الإسلام من خلاف . وكل ما جدّ للانسان من حق وقف عليه بعد جهل به فهو والحق الذى عرفه الإنسان من قبل سواء ، تشملهما الفطرة ، ويشملهما الإسلام الذى يشمل بتشريعه وروحه وكنفه جميع صور الحق وسننه فى جميع مدارج الحياة ، فى جميع مظاهر الكون ، ما عرف الإنسان منها وما سيعرف ، ما قدر له علمه فى هذه الدار وما قدر له بعد هذه الدار .

وليس فى الوجود دين ولا نظام جمع للانسان الخير كله والحق

كله وحذره من الباطل كله إلا الإسلام . والإنسان يستطيع إلى حد كبير تميز الحق من الباطل فى دائرة المحسوس الذى يستطيع إخضاعه لتجاربه العلمية ، أما ما لا يستطيع إخضاعه لتجاربه مما يتعلق بحياة الإنسان الروحية فلا سبيل للوصول إلى الحق والخير فيه إلا بإرشاد الله فاطر الفطرة وبهدايته . وقد فعل سبحانه ، فضلاً منه على عباده ورحمة بهم أن يهلكوا إذا تركوا وشأنهم فيما يتعلق بحياة الروح ، فإن للروح سننها التى سنها الله كما لغير الروح سننه ، ولا مناص للانسان من اتباع سنن الله وإلا كان من الهالكين . فكان من رحمة الله بالإنسان أن مهد الله له سبيل النجاة والفلاح واطراد الرقى الروحى بالأديان التى أرسل بها رسله تترى حتى ختمها سبحانه وأتمها للانسانية فى الإسلام

والعجيب الغريب من أمر الإنسان فى عصرنا هذا أنه يحرص على اتباع سنن الله فى عالم المادة ولا يحرص على سننه فى عالم الروح . هذا عجيب لأن الذى يقدر سنن الفطرة ويبحث عنها ليستمسك بها فى ميدان ينتظر منه أن يقدرها ويبحث عنها ليستمسك بها فى غيره من الميادين . فإذا كان فاطر الفطرة سبحانه قد أنزل للانسان هداية مبنية على سننه فى الميدان الذى لا يملك الإنسان إجراء التجارب العلمية فيه كان ذلك أدعى لاغتباط الإنسان بتلك الهداية من باب أولى . وكان الأقرب إلى العقل أن يحرص الإنسان عليها إن كان مؤمناً بها عن يقين ، فإن لم يكن كان الأولى والأقرب إلى العقل أن يسارع الإنسان إلى بحثها وفحص منعاتها الدالة عليها ليصل فيها إلى حكم صحيح وقرار صريح . لكن الإنسان لا يفعل شيئاً من هذا . فلا المؤمن يحرص على الدين كما ينبغى ويدعو إليه كما ينبغى ، ولا الشاك يسرع إلى فحص الدين كما ينبغى ليصل فيه إلى قرار صحيح . وأغرب من هذا أن يسمح المؤمنون وهم كثير للشاكين وهم قليل فى البيئة الإسلامية أن ينذروا شكهم وينشروه عن شمال ويمين ، فى نفوس النشء من بنات وبنين

إن البيئة الإسلامية تحسن الدفاع عن نفسها إذا هوجمت فى دينها صراحة ومواجهة من أمام ، لكنها لا تفقه أن الأمر يحتاج إلى دفاع حين يأتيها الخصم مداورة ويهاجمها فى الإسلام بحركة التفاف : لقد تركت لدعاة الغرب الحبل على الغارب يقولون ما يشاءون ويبثون فى نفوس صغارها وناشئيها ما يشاءون ما داموا يسلكون إلى ذلك طريق التلميح والإيحاء أو ما داموا لا يهاجمون التوحيد صراحة والقرآن . فلما غر كثيراً فيهم الغرور وظن أن الأوان قد آن لمهاجمة الدين مواجهة لا مداورة هبت الأمة كلها تذود حتى كادت تبطش به ، فلما انزوى عادت إلى نومتها الأولى كأن لم يبق هناك من حاجة إلى اليقظة والانتباه

وكان سلاح دعاة الغرب فى مهاجمة الإسلام فى صميم بلاده ونفوس أهله هو هذا الأدب الذى يسمونه بالجديد .

والأستاذ (قارئ) يحدثنا أن الذين يسمون الآن بأصحاب المذهب الجديد كانوا فى أول الحركة أو منذ ثلاثين سنة رجعيين يدعون إلى الرجوع فى النمط الأدبى إلى العصر الجاهلى أيام كانت اللغة خالصة ، وكان أدبها خالياً من التكلف فى الغزل والمحسنات اللفظية . لئن كان ذلك كذلك فما أظن حركتهم تلك فى الأدب كان لها داع ما ، لأن كل ما وصفها الأستاذ به وقال إنها تطلبه كان متحققاً بالفعل على يد حافظ وغيره إن لم يكن قبله

ويقول الأستاذ إن أنصارها قرأوا الشعر الأوربى اتفاقاً « فرأوا أن مبادئ رجعيتهم هى مبادئ الأدب الأوربى الصحيح السليم ، وأن الأدب الأوربى يعينهم على تحقيق تلك الرجعية » ولسنا ندرى كيف يمكن أن يعين الأدب الأوربى على تحقيق تلك الرجعية التى وصفت . وإذا صح أن بعضهم كان كما قال ، فأكثرهم لم يكن كذلك أى لم يقرأ الشعر الأوربى اتفاقاً ولم ينصره لأنه يؤيد مبادئه الرجعية ، ولكنهم كانوا ممن درسوا الأدبين ، وأوحى إليهم الأدب الأوربى مبادئهم التى دعوا إليها خصوصاً ما سماه : « الرجوع إلى طريقة المتقدمين فى إظهار كل شاعر خصائص نفسه وفكره ، وأن يباح له القول أكثر مما كان يباح للمتأخرين » . ولست أدرى ما ذا كان محرماً على المتأخرين ، وأراد أصحاب الجديد فى أول الأمر أن يباح لهم ، وإنما الذى أدريه أن مبدأهم ذلك قد خرج بهم عن الحد ، وأدى إلى هذا الأدب الفاجر الذى يستطيع الأستاذ أن يضع يده فيه على ما شاء ، والذى يعتذر عنه بأن هناك أفجر منه فى القديم

إن فى القديم أفجر منه من غير شك وأكثر منه أضعافاً

كثيرة ؛ لـكن التفاوت فى لحن القول ، أظن الفضل فيه يرجع إلى القانون، والـكثرة راجعة من غير شك إلى تراكم القرون وتعدد الأمم وكثرة الناس وعظم نسبة قائلى الشعر فيهم ممن يحسنه ومن لا يحسنه . فليت شعرى إذا حسب أثر ذلك كله ماذا تكون النتيجة وماذا يبقى من دفاع الأستاذ؟ إنها نقطة طريفة، لـكن مهما تكن نتيجتها فإنها لا قيمة لها فى الموضوع . فالقديم الذى ندافع عنه والذى إليه قصدنا من قبل ليس هو القديم الزمنى الذى ذهب إليه الأستاذ . ليس هو قديم المسلمين برهم وفاجرهم كما توهم الأستاذ خطأ ، ولـكنه قديم الإسلام بالمعنى الذى فصلناه . وإذن فنقده الذى وجهه إلينا وبناه على المعنى الزمنى للجدة والقدم نقد ذاهب لا يتوجه إلينا منه شىء

إن التفريق بين المذاهب والأعمال بحدوثها وقدمها كما يفعل كثيرون هو غير معقول، إنه تفريق تافه لأنه مبنى على شىء عارض هو الزمن يأتى ويمر من غير أن تكون له صلة بحقائق الأمور . إن قديم اليوم بمعناه الزمنى هو جديد أمس قد مضى ، وجديد اليوم هو قديم غد سيكون . فالجدة والقـدم شىء عارض متغير لا وزن له فى قياس قيم الأشياء اللهم إلا المادى منها ، وليس فى كلها يطرد معناه . أما الأمور المعنوية التى تتصل بحياة الإنسان الروحية وصميم إنسانيته فلا بد لقياسها والمفاضلة بينها من معيار آخر ثابت على الزمان هو معيار الحق والصدق والخير . وقد أنزل الله الدين ليهدى الإنسان إلى ما لا يستطيع الاهتداء إليه من هذا ما دامت حياته ونجاته وإنسانيته متوقفة عليه . من أجل ذلك تركنا المعيار الزمنى الذى لا يغنى من الحق شيئاً ، وقررنا ما كنا نظن أنه بديهى واضح من أن المعيار الثابت للحق والخير يجب أن يلتمس لا فى جديد الغرب ولـكن فى قديم الإسلام بأى فى الإسلام كما أنزله فاطر الفطرة على الإنسان الـكامل والرسول الخاتم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه

لقد قررنا هذا الأصل من قبل ولا نزال نقرره . قررناه حين كتبنا نقدنا التحليلى لـكتاب الأدب الجاهلى وأخذنا على صاحبه فيما أخذنا نشره مجون الأدب الغربى فيما كان يلخص للهلال من روايات فاجرة كرواية الزنبقة الحمراء ، ونشره مجون الأدب العربى فيما كتب عن أبى نواس ووالبة ومن إليهما فى حديث الأربعاء . وها هو ذا صاحبه يدعو فى أحدث كتاب له إلى الأخذ بحضارة الغرب كلها خيرها وشرها حلوها ومرها كأنما أراد أن يصدق ما قلنا فى كلمتنا الأولى التى انتقد الأستاذ (قارئ) من أن « الذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام فى أكثره » . فنحن حين صورنا الخلاف بين أنصار قديم الإسلام وجديد الغرب كما صورنا إنما كنا نصف واقعاً مشهوداً، والأستاذ (قارئ) يصف من حركة الجديد تاريخاً غير مشهود هو ، على قصر الفترة التى كانت منذ بدأ ، وصار إلى هذا الجديد الذى يغلب على الحركة الآن وغلب عليها من زمان — بالنسبة إلى عمرها — طويل

والأستاذ (قارئ) يجعل للأسلوب والطريقة واللغة مكاناً كبيراً فى حركته التى وصف ، وإنى أعرف أن الأسلوب واللغة والطريقة هى مدار الخلاف بين من يعرفون بأنصار الجديد وأنصار القديم كما أعرف للأسلوب والطريقة واللغـة مكانها فى الأدب . لـكنى لا أحلها مع ذلك المحل الأول ، وإنما أجعل لروح الأدب المقام الأول فى الحـكم عليه . وأنا فى ذلك تابع غير مبتدع، تابع للقرآن مهتد بما سنه للناس

فلحكمة كبرى جعل الله معجزة دينه معجزة أدبية باقية على الدهر وجعل رسوله أفصح الناس . وليس أصغر ما فى تلك الحـكمة التنويه بالأدب والتنبيه إلى أن قوته الهائلة ينبغى أن تكون عوناً للحق والخير على الشر والباطل فى حياة الإنسان، فهذا تشريع منه سبحانه وهدى للناس فى الأدب كان ينبغى عليهم أن يتبعوه . ولقد اتبعوه بالفعل فى عهد الرسول وفى أكثر عهد الخلفاء الراشدين، ثم جاء عمر بن أبى ربيعة الذى لو أدرك عهد عمر بن الخطاب لجلده ونفاه ولـكف من غرب مجونه الذى فتح فى الأدب باب الشر والمجون على الناس. وصلوات الله على رسول الله لقد نبه الناس لو كانوا ينتبهون: نبههم إلى أن الشيطان يئس أن يعبد فى أرضهم ورضى أن يطاع فيما يحقرون من أعمالهم . وكان مما حقروا القول الماجن ما داموا لا يرتكبون بالفعل ما يفترون فيه . وظن ابن أبى ربيعة أنه إذا قال ولم يأت شيئاً مما قال فليس عليه عند الله وزر ، ونسى حديث الرسول الذى أنبأ فيه الناس أن الله قد تجاوز لهم عن حديث النفس مالم تعمل أو تكلم، والحديث الذى نبه فيه صلوات الله عليه

الناس أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ووقع ابن أبي ربيعة في الحرجين واحتمل الوزرين كليهما فوصف حديث نفسه كلاماً تبعه فيه العرجي ومن لف لفه فانحرفوا بالأدب العربي عن الطريق الذي اختطه له القرآن إلى الطريق الذي تمناه الشيطان لينفذ منه إلى النفس المسلمة يفسدها قليلاً بعد قليل وجيلاً بعد جيل

فالأدب العربي ككل أدب إنساني يجب أن يحكم عليه أول ما يحكم لا بأسلوبه ولا بطريقته ولا بلغته. ولكن قبل كل شيء بأثره في النفس أي بأثره في حياة الفرد وفي حياة المجموع . فإن كان أثره صالحاً يعين النفس على رقيها ويهديها إلى ربها فهو أدب صالح كريم ، وعندئذ تكون بلاغته وما يمكن أن يتصف به من مميزات أخرى حسنات له توضع في ميزانه. أما إذا كان سيء الأثر يثير في النفس شهواتها ويصرفها عن هداها فهو أدب فاسد غير كريم مهما ملك صاحبه من عنان اللغة ومهما استاز في الأسلوب، بل مميزاته في اللغة وفي الأسلوب تكون عندئذ من سيئاته لأنها تجعله أقدر على إفساد نفس الإنسان . من أجل ذلك جعلنا الأدب فيما كتبنا قسمين : قرآنياً وغير قرآني، أو أخلاقياً وغير أخلاقي، حسب أثره في النفوس لا فرق في ذلك بين القديم منه والجديد

والأدب الجديد كان له أسوأ الأثر في النفس المسلمة خصوصاً النفس التي لا تعرف من دينها ما تستطيع أن تدفع به عادية ذلك الأدب على مكان الدين منها ليفتنها بجديد الغرب عن قديم الاسلام. ولقد قلنا من أجل ذلك إن المسألة بين القديم والجديد هي في صميمها مسألة اختيار بين دين ودين، فظن الأستاذ أننا نريد أن الجديد يريد أن يحل المسيحية محل الاسلام ، وليس كذلك . إن المهم ليس هو ذات ما يتخذ بدلاً من الاسلام ، ولكن هو مجرد الانصراف عن الاسلام . وماذا يهم إذا انصرف المسلم عن الاسلام أي شيء اتخذ أو على ماذا أقبل؟ إنه إذا استدبر الإسلام لا بد مستقبل غيره؛ وإذا أحله من نفسه المحل الثاني فهو لا بد محل غيره المحل الأول ؛ وإذا عصاه فهو لا بد مطيع سواه . هذا الذي يستقبل ويكبر ويطيع بدلاً من الإسلام هو الدين الذي اتخذه أو يتخذه المسلم المفتون بالغرب بدلا من دينه . وليس يهم أدين هو معروف في الأديان أم هوى هو بين الأهواء أم وهم من الأوهام

واستعمالنا لفظ دين بهذا المعنى استعمال غير صحيح . فالدين في الأصل معناه الخضوع ومن أخص خصائصه العبادة ، وقد جعل الله سبحانه طاعة الناس للشيطان عبادة منهم للشيطان في قوله (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) . وأوضح أن الناس لم يعبدوا الشيطان عبادة سجود ولكن يكفي من عبادتهم إياه أنهم اتبعوه فأضلهم عن سبيل الله . كذلك قد جعل الله اتباع الإنسان هوى نفسه عبادة للهوى واتخاذاً إياه إلهاً من دون الله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً) (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . فأساس التدين اتباع الدين والخضوع لله طوعاً ما للإنسان خيار فيه . فإذا غلب الانسان على دينه شيئاً آخر يدين له بالطاعة من قلبه فذلك الشيء هو في الواقع دين له بدلاً من دينه الذي ينتسب بالاسم إليه؛ وإذن فنحن لم نغرب ولم نخرج عن حدود الدين ولا عن الاستعمال القرآني حين أطلقنا لفظ الدين على كل ما يعمر في قلب المسلم محل دينه . ونحن لم نظلم دعاة جديد الغرب حين قلنا إن جديدهم في الأدب ليس مقصوراً على الأسلوب والطريقة ولكنه في صميمه إحلال دين مكان دين ما دام منحى ذلك الأدب التماس المثل العليا واقتباسها من الغرب لا من الاسلام ولا من القرآن

محمد أحمد الغمراوي